«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي: مطالعة خاصة في حقبة ربيع العرب

عبد الجليل م.

أستاذ مساعد، قسم العربية، كلية الفاروق، كاليكوت، كيرلا، الهند

ه محاولة يسيرة لمطالعة خاصة عن "طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد" لعبد الرحمن الكواكبي في آونة الثورات ربية الراهنة. وهي انتفاضة شعبية اندلعت أحداثها من سنة ٢٠١٠ بأسباب متعددة، والتي بدأت بتونس من محمد وعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده تعبيرا عن غضبه على بطالته واستبداد النظام الحاكم وانتهت إلى سقوط ظام الحاكم بمغادرة زين العابدين بن علي ، وأخذت بعدها المنطقة العربية تمور من شرقها إلى غربها بانتفاضات عبية سميت بـ"ربيع العرب" مطالبة إنهاء الاستبداد والعدالة الاجتماعية وانهاء تفاقم الفساد في النظام الحاكم وحرية عبير وعدم البطالة وحقوق المواطنة والمساواة في الفرص .. الخ، هذه هي مطالعة تقويمية لهذا الكتاب في آونة لربيع العربي' والذي يتناول الاستبداد وعن طبائعه ومصارعه بأصالة وحداثة، وقد مضى قرن واحد بعد صدوره.

ذة عن حياة الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

هو عبد الرحمن بن أحمد الكواكبي، علامة سوريا مفكرا ومؤلفا ومحاميا وفقيها شهيرا ومجددا شهيدا[1]، وولد في سنة ١٨٤٩ في مدينة حلب، والده هو أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي ، لأرومة عريقة لها شأن كبير في سوريا والدته السيدة عفيفة بنت معصود آل نقيب وهي ابنة مفتى أنطاكية في سوريا، وتعلم في مدينة حلب التي كانت منتجع العلماء آنذاك ودرس من المدرسة الكواكبية دروس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة وكان والده مدرساً هناك مع نفر من كبار العلماء في حلب، ولم يكتف الكواكبي بالمعلومات المدرسية فقد اتسعت آفاقه الفكرية أيضا لاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي على تراث هائل من الكتب والمخطوطات، واستطاع أن يطلع على علوم سياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم، وبدأ الكواكبي حياته محررا في جريدة "الفرات" وكان جريدة سمية للحكومة، وعرف بمقالاته التي تفضح فساد الولاة، وترك "الفرات" لفهم أن الصحف الرسمية لم تكن سوى عدات للقوة الحاكمة، وأنشأ صحيفة "الشهباء" ولكنها لم تستمر هذه الصحيفة طويلاً إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته ي النقد، فالحكومة حيث يقول الكواكبي في هذا الشأن:"تخاف من القلم خوفها من النار"، وتابع جهاده الصحفي ضد لاستبداد فأصدر عام ١٨٧٩ باسم صديق آخر جريدة «الاعتدال» سار فيها على نهج «الشهباء» لكنها لم تستمر طويلاً توقفت عن الصدور، بعد أن تعطلت صحيفتاه «الشهباء» و«الاعتدال» انكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن ضواً في لجنتي المالية والمعارف العمومية في حلب، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان لمحامين للمدينة، وبعد أن أحس أن السلطة المستبدّة تعرقل أحلامه وأمانيه، انصرف إلى العمل بعيداً عنها، فاتخذ مكتباً لمحاماة في حي الفرافرة إحدى أحياء مدينة حلب قريباً من بيته، وكان يستقبل فيه الجميع من سائر الفئات ويساعدهم يحصل حقوق المتظلمين عند الجهات القضائية العليا ويسعى إلى مساعدتهم، وقد كان يؤدي عمله في معظم الأحيان ون أي مقابل مادي، حتى اشتهر في جميع أنحاء حلب بلقب "أبي الضعفاء".

---

[1] شارة إلى عنوان كتاب محمد عمارة (عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام)

واستمر الكواكبي صقل يراعه بكتاباته الجياشة ضد السلطة التي كانت في نظره تمثل الاستبداد، وبذلك عرّ
الايذاءات من السلطة العثمانية، وقد أوصلوه مرة الى منصة الاعدام في محكمة حلب ثم برء منها بعد معاناة حقد
قاسية، واضطر الكواكبي الى التجوال في كثير من البلدان مثل الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل غربية
مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطان عبد الحميد، وذاع صيته في القاهرة وتتلمذ على يديه الكثير
واحداً من أشهر العلماء أثناء إقامته في القاهرة قام الكواكبي برحلات عديدة للدول العربية والاسلامية تفقد
المسلمين الراهنة وحلولها، وأمضى الكواكبي حياته مصلحاً وداعياً إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية وقد شكل
الإصلاحية والجمعيات الخيرية التي تقوم بتوعية الناس وقد دعا المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات ودعا الى
خلافة عربية على أنقاض الخلافة التركية وطالب العرب بالثورة على الأتراك وقد انتقد نقدا مرا على الحكومة
المستبدة مسؤولية الرعية[1]. وها يقول الدكتور محمد عمارة: 'كان الكواكبي قوميا عربيا لكنه لا تنعزل قوميته وعروبته
عن دائرة الجامعة الإسلامية (Pan Islamism) وكان مصلحا إسلاميا يعمل لتجديد الإسلام كي تتجدد به دنيا المسلمين
وقد ترك الكواكبي أثارا ضخما لا تزال غرة في جبين التاريخ ، ومنها' طبائع الاستبداد' و'أم القرى' و' العظمة
و'صحائف قريش' و'أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها'و'الأنساب' ولا تزال مؤلفات عبد الرحمن الكواكبي مرجعا
هاماً لكل باحث، وتوفي في القاهرة متأثراً بسم دس له في فنجان القهوة ١٩٠٢ حيث دفن فيها[2].

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد : مطالعة من جديد

هذه محاولة لمطالعة عصرية لكتاب الذي مضى قرن واحد بعد صدوره وقد توفي مؤلفه
١٩٠٦م، ليرى هل هناك فرق بين طغاة الغابر وطغاة الحاضر؟ وما دام الاستبداد
كبيرة أمام تحقيقات الشعب وآمالها ينبغي علينا تحليل الاستبداد وخاصياته وكيفية
منه، وأن لمطالعة هذا الكتاب من جديد أهمية بالغة لما أن الثورات ضد ظاهرة
مستمرة في كثير البلدان خاصة في الشرق الأوسط والمغرب العربي. وإعتمدت على
إلكترونية لكتاب 'طبائع الاستبداد' وهي نسخة تحتوي على مقدّمة للدكتور أسعد السحرا
واعتمدت أيضا على ملفات محمد الحداد في موقع أهل القرآن[4] بخصوص قراءة
الاستبداد. أن الصفحة الرئيسية تحمل بعد إسم الكتاب كلمات كما تلي:

وهي كلمة حق وصرخة في واد - إن ذهبت اليوم مع الريح - لقد تذهب غدا بالأوتاد

أن الطبع الأول لهذا الكتاب لم يكن يحمل إسمه الأصلي بل كان الاسم في الغلاف 'الرحالة ك' يعني إسم مستعار. وهذا
على أنه لم يتعبر شهرته الشخصية بل إعتبر بثّ أفكاره بين العامة، وكان يخاف أنه إذا سمى بإسمه ستمنعه
المستبدّة وتقف عرقلة أمام نشر هذه الأفكار التي لا تزال رعدة للمستبدّين. نرى الكواكبي في هذا الكتاب يتحدث
وصراحة في عصر يسوده الاستبداد. والكتاب ليس نقدا للمستبدين والسلطات المستبدة بل فيه تشخيص أزمات
بواقعها المؤلم وإيقاظ النيام للشعوب حتى يثوروا على كلّ مستبد غاشم.

١. راجع عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام لمحمد عمارة ، دار الشروق بالقاهرة (٢٠٠٧) وويكيبيديا
٢. عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام لمحمد عمارة ، دار الشروق بالقاهرة (٢٠٠٧)
٣. اعتمدت في كتابة هذه النبذة على ما كتب عن الكواكبي في مواقع كثيرة على الانترنت، وعلى كتاب حفيده القاضي سعد زغلول
الكواكبي المعنون: عبد الرحمن الكواكبي السيرة الذاتية
٤. http://www.ahl-alquran.com

ماهية الاستبداد وفق منظور الكواكبي

وقبل الخوض إلى مناقشة الأجزاء القادمة تحت الاسبداد، علينا أن نقوم بتحليل ماهية الاستبداد وفق منظور الكواكبي، وقد ناقش الكواكبي الاجزاء المتعلقة بالاستبداد تحت العناوين التالية: الاستبداد والدين، والاستبداد والعلم، والاستبداد والمجد، والاستبداد والمال، والاستبداد والأخلاق، والاستبداد والتربية، والاستبداد والترقي وكيفة التخلص من الاستبداد. ويقول الكواكبي : الاستبدادُ لغةً هو: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصّة؛ لأنّها أعظم مظاهر أضراره التي جعلتْ الإنسان أشقى ذوي الحياة...كما رأينا فالمقصود بالاستبداد هو الجانب السياسي منه فقط، وليس غيره، كالمستبد الاجتماعي مثلاً...الاستبداد في اصطلاح السّياسيين هو: تصَرُّف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة....ويستعملون في مقام صفة (مستبدّ) كلمات: جبّار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة (حكومة مستبدّة) كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيّدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرّعية (المستبَدّ عليهم) كلمات: أسرى، و مستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين، وفي مقابلتها: أحرار، وأباة، وأحياء، وأعزّاء...هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات، وأمّا تعريفه بالوصف فهو: أنّ الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرّف في شؤون الرّعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقّقين[١]. ومن هنا يحاول الكواكبي لسرد صفات الاستبداد حيث يقول: ويكفي هنا الإشارة إلى أنّ صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولّى الحكم بالغلبة أو الوراثة[٢]. ويورد الشيخ محمد الحداد أمثلة بهذا الصدد من التاريخ القريب في موقع أهل القران في انترنت حيث يقول : لأعطي أمثلة قريبة عن هكذا مستبدين، فصدام حسين في العراق مثال للحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة، و بشار الأسد في سوريا مثال للحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالوراثة، والمثالين لحكومات تعتبر نفسها مقيدة وفق شرعة الدستور، ولكن دستورها طوع يد الحاكم، يغير به حسب هواه[٣].

تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيَّد المنتخب متى كان غير مسؤول[٤] وخير مثل لهذا كان الطاغية حسني مبارك ويقول :وتشمل حكومة الجمع ولو منتخباً؛ لأنَّ الاشتراك في الرّأي لا يدفع الاستبداد، وإنّما قد يعدّله الاختلاف نوعاً، وقد يكون عند الاتّفاق أضرّ من استبداد الفرد[٥] وهناك حكومة نوري المالكي فيْ جمهورية العراق مثلا ويقول: ويشمل أيضاً الحكومة الدّستورية المُفرَّقة فيها بالكُلّيّة قوّة التشريع عن قوّة التّنفيذ وعن قوّة المراقبة؛ لأنَّ الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية، فيكون المُنفّذون مسؤولين لدى المُشرّعين[٦] ويقول أيضا :وأشدّ مراتب الاستبداد التي يتعوّذ بها من الشّيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية[٧] واقرب مثال على ذلك هو حكم العاهل المغربي الملك محمد السادس، والملك عبد الله الثاني بن الحسين للمملكة الأردنية الهاشمية، لنا أنْ نقول كلّما قلّ وَصْفٌ منْ هذه الأوصاف[٨] ...إنَّ الحكومة من أيّ نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشّديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه[٩]...ومن الأمور المقرَّرة طبيعة وتاريخاً أنّه؛ ما من حكومة

---

١ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي– طبعة بيسان، بيروت لبنان
٢ نفس المصدر
٣ http://www.ahl-alquran.com
٤ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٤
٥ نفس المصدر، ص: ٥
٦ نفس المصدر، ص:١٠
٧ نفس المصدر، ص:١٠
٨ نفس المصدر، ص:١٤
٩ نفس المصدر، ص:١٤

عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمّة أو التّمكّن من إغفالها إلاّ وتسارع إلى التّلبّس بصفة الاستبداد، وبما أنْ تتمكّن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الوسيلتين العظيمتين: جهالة الأمّة، والجنود المنظّمة[١].

وهما أكبر مصائب الأمم وأهمّ معائب الإنسانية، وقد تخلّصت الأمم المتمدّنة - نوعاً ما - من الجهالة، ولكنْ؛ بُليت بشدة الجندية الجبرية العمومية[٢] ولم يشهد المؤلف سلاسل الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى يعنى إستبداد أمة على أمة ويقول: لا يُعهد في تاريخ الحكومات المدنية استمرار حكومة مسؤولة مدّة أكثر من نصف قرن إلى غاية قرن ونصف وما شذّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في إنكلترا[٣]... نعم؛ على الرّعية أن تعرف مقامها: هل خُلِقت خادمة لحاكمها تطيعه إنْ عدل أو جار، وخُلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف؟ أم هي جاءت به ليخدمها لا يستخدمها؟ والرّعية العاقلة تقيّد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزّت به الزّمام وإنْ صال ربطته[٤] وهذه من أخير الوصايا للأمة المستنهضة من قبل المؤلف.والقول ما قاله أبو القاسم الشابي في هذا الصدد:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدرْ

ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسرْ

الاستبداد والدّين

وهنا ألخص ما قاله المؤلف بهذا الصدد بسرد بعض القطعات المثالية حيث يقول : تضافرت آراء أكثر العلماء النّاظرين في التّاريخ الطّبيعي للأديان، على أنّ الاستبداد السّياسي مُتولّد من الاستبداد الدّيني[٥]...وإنّما نبني نتيجتنا على مقدّمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مُستبدّيهم بالدّين[٦]... وأعتقد أن أكثر الأديان الأخرى تكون الشراكة بين رجالات دينها أو كهنتها مع المستبد، وليس الدين كنص دون مطبقين له حسب فهمهم الوقتي والمكاني، له مشاركة لوحده مع المستبد، بل هم أولئك الرجال الذين أخذوا على عاتقهم تفسير النص الديني حسب مزاجهم[٧]...ويُقرّرون أنّ هذا التّشاكل بين القوّتيْن ينجرُّ بعوام البشر- وهم السواد الأعظم - إلى نقطة أنْ يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحقّ وبين المستبدّ المُطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيث التّشابه في استحقاق مزيد التّعظيم، والرّفعة عن السّؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال[٨]...(الفعّال المطلق)، والحاكم بأمره، وبين (لا يُسأل عمّا يفعل) وغير مسؤول، وبين(المنعم) ووليّ النعم، وبين (جلّ شأنه) وجليل الشّأن. بناءً عليه؛ يُعظّمون الجبابرة تعظيمهم لله، ويزيدون تعظيمهم على التّعظيم لله[٩]...حتّى يُقال: إنّه ما من مستبدٍّ سياسيّ إلى الآن إلا ويتّخذ له صفة قدسيّة يشارك بها الله، أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله[١٠]. ونظن أن هذه قراءة واقعية للمستبدين في الأمم العرب. ما أشبه طغاة الغابر وطغاة الحاضر!

الاستبداد وكيفية التخلّص منه

وقد أطال الكواكبي في هذا المبحث، ولكنّي أسرد بعض العيّنات التي تعين على بصيرة الكواكبي بهذا الصدد حيث يقول: أعني مبحث السّعي في رفع الاستبداد، فأقول: الأمّة التي لا يشعر كلّها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقّ الحريّة.

---

١. نفس المصدر، ص:١٨
٢. نفس المصدر، ص:١٨
٣. نفس المصدر، ص:١٩
٤. نفس المصدر، ص:٢٤
٥. نفس المصدر، ص:٢٨
٦. نفس المصدر، ص:٣٦
٧. نفس المصدر، ص:٤٢
٨. نفس المصدر، ص:٦٦
٩. نفس المصدر، ص:٦٨
١٠. نفس المصدر، ص:٧٠

والاستبداد لا يقاوَم بالشِدّة إنما يُقاوم باللين والتدرّج، ويجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يُستبدَل به الاستبداد[١]. فإذا وُجِد في الأمّة الميتة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولاً: أن يبثّ فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأنّ حالتها سيئة، وإنّما بالإمكان تبديلها بخيرٍ منها، فإذا هي علمت بطبعه من الآحاد إلى العشرات، إلى إلى...، حتى يشمل أكثر الأمّة، وينتهي بالتحمّس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعرّي:

إذا لم تقُم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قُدَراء[٢]

ومبنى قاعدة أنّ الاستبداد لا يُقاوم بالشدة، إنما يُقاوم بالحكمة والتدريج هو: أنّ الوسيلة الوحيدة الفعّالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الأمّة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس. ثمّ إنّ اقتناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه، لا يتأتّى إلا في زمن طويل، لأنّ العوام مهما ترقوا في الإدراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية إلا بعد التّروي المديد[٣]... وخلاصة البحث أنّه يلزم أولاً تنبيه حسّ الأمّة بآلام الاستبداد، ثمّ يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية للسياسة المناسبة لها؛ بحيث يشغل ذلك أفكار كلّ طبقاتها، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين، بل عشرات السنين حتى ينضج تماماً، وحتى يحصل ظهور التلهّف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا، والتمنّي في الطبقات السفلى، والحذر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالتحذّر الشديد[٤].

الختام

وثمة عناوين متعددة في نص الكتاب،، الاستبداد والترقي الاستبداد والعلم والاستبداد والمال والاستبداد والانسان والاستبداد والأخلاق والاستبداد والتربية والاستبداد والترقي... وغيرها، ولا تسع القراطيس هنا لسردها وتحليلها ولذلك أكتفيت بعنوانين: الاستبداد وكيفية التخلص منه وفي الختام سأقول بأن أفكاره تناسبت تماما مع القطعة الشعرية التي قالها وليد الأعظمي في الزوابع حيث يقول:

إن الطغاة ينابيع تفيض أذى تاريخهم كله خزي وأقذار
وما دروا أن هذا الشعب منتبه دم التحرر في أحشاه فوّار
سلب ونهب وإعنات يضيق به صدر الحليم ولب المرء يحتار
لن يسكت الشعب عن حق له أبداً حتّى ينال الذي يرضى ويختار
إلى أن قال: زال الطغاة كما زالت مفاسدهم والظلم لا شك في أخراه ينهار

وأصرّح أخيرا بأن أفكاره تناسبت مع التي قالها في مستهلّ الكتاب "إن ذهبت اليوم مع الريح : لقد تذهب غدا بالأوتاد".

المراجع

- عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، طبعة بيسان (٢٠٠١)
- عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام لمحمد عمارة ، دار الشروق بالقاهرة (٢٠٠٧)
- عبد الرحمن الكواكبي – السيرة الذاتية لسعد زغلول الكواكبي، مكتبة بيسان – (١٩٩٧)، بيروت - لبنان
- http://www.ahl-alquran.com
- http://www.al-ayyam.ps
- http://www.alittihad.ae
- http://www.alwatan.com.sa
- http://www.alarabiya.net

١. نفس المصدر، ص:٩٢
٢. نفس المصدر، ص:٩٣
٣. نفس المصدر، ص:٩٦
٤. نفس المصدر، ص:٩٦